البنيوية التكوينية في النقد الأدبي
رؤية لوسيان غولدمان

الأستاذ/الشريف حبيلة
أستاذ مساعد مكلف بالدروس
قسم اللغة العربية و آدابها
المركز الجامعي تبسة

تقدم الدراسة منهجا نقديا غربيا ترك بصماته في تطبيقات النقد العربي، لذا نرى أهمية العودة إليه من أجل الإحاطة العلمية برؤية مؤسسه، مع أن القارئ قد يجد هكذا موضوع مشبعا درسا، غير أن ما تطمح إليه الدراسة هو قراءة شاملة مبنية على كتابات المؤسس الأول للبنيوية التكوينية، و القراءات العربية لها، و التي ركز البعض منها على جانب دون آخر من النظرية، باستثناء دراسة (جمال شحيد) التي أرادت أن تكون شاملة إلى حد ما لذلك تأتي هذه الدراسة لتستفيد من هذا و ذاك محاولة الإلمام برؤية (غولدمان) لفائدة القارئ العربي.

و سنبدأ من حيث بدأ (غولدمان)، فقد أسس نظريته على النقد الذي قدمه لأستاذه (لوكاتش)، فلم يحفل كثيرا بالواقعية الاشتراكية أو النقدية، اهتم بكتاب من خارج دائرة اهتمامات أستاذه، و لم يفهم الأدب في العصر الحديث ضمن النظرة الكلاسيكية لعلم الجمال متجاوزا الثنائية التي تتناول دوما الأدب من منظور الواقعية و المثالية. و رأى بأنها لم تعد صالحة على الناقد المتمرس الابتعاد عنها.

و مع ذلك يعود في كثير من الأحايين و هو يبني نظريته إلى أعمال (لوكاتش)، خاصة في تحديد منهجه البنيوى التكويني؛ و بالتحديد الأعمال الأولى"الروح و الأشكال، نظرية الرواية، التاريخ و الوعي الطبقي"، ففيها وجد العناصر الجمالية الثلاثة:

الشكل و البنية و الشمولية، مستبدلا مفهومي الشكل و الشمولية بالبنية الدلالية1.

إن القارئ لجهود (غولدمان) يجد معالم متكاملة لنقد سوسيولوجي، استند في تأسيسه إلى أعمال (لوكاتش) معيدا صياغة أفكاره بنوع من الدقة و الإحكام، إضافة إلى مفاهيم جديدة أعطت مظهرا جديدا لسوسيولوجيا الرواية؛ يتميز بالمرونة في إطار المبادئ الفلسفية الأساسية

للمادية. على هذا الأساس يرى أن الأعمال الأدبية تقوم على أبنيـــة عقليـــة للجماعـــات أو الطبقات؛ وليس الفرد فقط، إذ تبنيها هذه الأخيرة و تهدمها باستمرار في عملية تعديل توجـــه لصورها العقلية الخاصة بالعلم؛ يرفضها الواقع المتغير؛ و تبقى تلك الصور كاملـــة في شـــكلها خامات في وعي الطبقات حتى تحظى بكاتب عظيم، يعيد صياغتها في رؤية للعالم متكاملـــة. و يظهر هذا في كتابه "الإله الخفي" حينما وجد علاقة تربط تراجيديا (راسين) و فلسفة (باسكال) بالحركة الدينية الفرنسية المسماة "جنسينية*Jansenism" 2.

لذلك دعا إلى ضرورة الاهتمام بالحركة المتواصلة من النص إلى المجتمع، و من المجتمـــع إلى النص، دليلا على مدى تأثير المجتمع في تكوين العمل الإبداعي؛ فكان من الواجب تنـــاول إي عمل باعتباره نتاج المجتمع؛ و تشكل هذه العلاقة الفكرة الأساس عند (غولدمان)، تكمن قيمتها في الدور الذي تؤديه الوقائع في العمل الأدبي.

يجمع (غولدمان) بين الفكر الماركسي و الفكر البنيوي، لتحديد منهجه؛ فمن جهة تهـــتم الماركسية بالعوامل الاجتماعية و الاقتصادية، كمؤثرات في الإنتاج الأدبي، و من جهة أخـــرى تهتم البنيوية ببناء النص فقط، ويظهر أنه يجمع بين الشكل و المضمون؛ أي بين بنيـــة الـــنص و العوامل الخارجة عنه، و المؤثرة فيه، من منطلق أن الكاتب يتأثر بالواقع الذي يعيش فيه؛ يتجلى هذا الشكل إما على هيئة توافق بين الكاتب و الواقع، و إما في شكل رفض، و إما يصير تركيبا للأفكار الكامنة في ذلك الواقع.

و يسجل في كتابه"من أجل سوســـيولوجيا للروايـــة" **Pour Une Sociologie Du Roman**"، نقاطا أربعة لفهم العلاقة بين الواقع و العمل الأدبي هي:

1- إن النتاج الأدبي ليس انعكاسا ساذجا للوعي الجماعي الواقعي، بل يميل إلى بلوغ درجة من الانسجام، تعبر عن طموحات وعي الجماعة التي يتحـــدث الكاتـــب باسمها، و يمكن تصور هذا الوعي كحقيقة موجهة من أجل الجماعـــة المـــذكورة على نوع من التوازن في الواقع الذي تعيش فيه3.

2- إن العلاقة المجودة بين الوعي وبين الأعمال الإبداعية الفردية الكبيرة، أدبية كانت، أم فلسفية، أم لاهوتية، لا تكمن في شكل تطابق تام في المحتوى، و لكنها تتجلى في نوع من الانسجام على مستوى أعلى من التطابق على مستوى البنيـــات، لأن

الأعمال الإبداعية تكون مضامينها في صورة صياغة مجازية، تختلف كثيرا عن المضمون الواقعي للوعي الجماعي[4].

3- العمل الأدبي الذي يقابل بنية فكرية لجماعة ما، بإمكانه أن يكون في بعض الحالات تماثلا دقيقا، ينطوي على علاقة بسيطة بين العمل الفكري، و هذه الجماعة؛ فالميزة الاجتماعية للعمل الأدبي تكمن على الخصوص في كون الفرد ليس بمقدوره وحده فقط تكوين بنية فكرية منسجمة، تقابل ما يسمى برؤية العالم، لأن مثل هذه البنية لا تتكون إلا من طرف جماعة، أما الفرد فبإمكانه نقلها إلى مستوى أعلى أكثر انسجاما، و تحويلا إلى مستوى الإبداع الخيالي للفكر النظري5.

4- إن الوعي الجماعي ليس حقيقة أولية، ولا حقيقة مستقلة، بل هو وعي يتكون ضمنيا ضمن السلوك العام للأفراد المشاركين في الحياة الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية...إلخ6.

مثل هذه النقاط تقودنا ليس إلى الاهتمام بالعلاقة القائمة بين النتاج الأدبي، و الوعي الجماعي الكائن، بل إلى ربطه بالوعي الجماعي الممكن؛ فيغدو العمل عظيما إذا عبر عن الطموحات القصوى للجماعة، التي منها استعار مضامينه كما سبق و أشرنا.

و تعطي النقطة الثانية العمل استقلالية نسبية محتفظة له بخصائصه الجمالية، التي تميزه عن غيره من الأعمال، لأنه كما قلنا ليس بالضرورة أن يطابق مضمونه السطحي مضمون فكر الجماعة التي يعبر عنها، بل يوظف المجاز ليتميز عن الواقع، ويشكل عالما من العلاقات في إطار عمل خيالي. تكشف الدراسة عن مستوى آخر هو البنية العميقة التي تقترب في تركيبها من فكر الجماعة المعبر عنها، هنا تكمن أهمية المنهج التكويني، المفتاح الذي يوصلنا كقراء إلى البنية العميقة، التي يمكننا تحليلها بعد مقارنتها بفكر الجماعة ، التي أخذ منها ذلك المضمون.

أما النقطة الثالثة فتمكننا من معرفة طبيعة العلاقة بين مضمون الإبداع و الانتماء الاجتماعي للكاتب، و هي علاقة ضلت زمنا آلية عند النقاد الجدليين، إلى أن كشف (غولدمان) تجوز [illegible]لزاك) لانتمائه الأرستقراطي، ليعبر عن جماعة أخرى لا ينتمي إليها.

و يمكن القول باختصار أن هذه الملاحظة التي أشار إليها(غولدمان) تؤكد أن العمل الأدبي ليس عملا فرديا، بل هو نتاج وعي الجماعة.

هكذا لا يمكن عزل أي عمل عن السياق الثقافي، الذي نشأ فيه، و تطور فيه، و يصير فهم أي مسألة خاصة، لا يتم إلا من خلال الإطار العام المحيط بها، و تاريخ المجتمع الذي أنتجها؛ و يصير أيضا العمل الفردي عملا مشاركا في فهم التاريخ العام؛ لأن تفاصيله تساعد على إدراك الوضع الشمولي لأي مجتمع كان.

و من المنظور تتضح البنية التي يتبناها (غولدمان)، تلك المرتبطة بالأعمال و الأفعال الإنسانية؛ يقدم فهمها جوابا عن و ضع إنساني ما، لأنها تمثل التوازن الفاعل و فعله، و الأشخاص و الأشياء؛ فتأخذ سمة التكوينية، و هي الدلالية، وإن لم تعد إلى نشأة العمل.

و هو مصطلح يحاول من خلاله (غولدمان) إقامة توازن بين الوضع الخارجي و الوضع الداخلي الخاص بالإنسان، يتغير من جماعة إلى أخرى، و من مجتمع إلى آخر.

و يرى أن السمة الجماعية تصبغ العمل الأدبي، تربطهما علاقة عضوية، هي نفسها يقترحها (غولدمان) على البنى الذهنية المتحكمة في الجماعة و الفرد على السواء؛ تتميز بكونها ذات بعد جماعي، تشبه العلاقة بين العضلات و الحركات، و بين العين و الرؤية. من ثم يكون فهم العلاقة بين الأدب(الفرد) و تلك البنى محور عمله(الجماعة)بوساطة الدراسة البنيوية التكوينية7.

يقول (غولدمان):<< إن المشكلة الأولوية التي كان يتوجب على سوسيولوجيا الرواية تناولها هي مشكلة العلاقة بين الشكل الروائي نفسه، و بين الوسط الاجتماعي الذي تطور هذا الشكل داخله، أي بين الرواية كتنوع أدبي، و المجتمع الفرداني الحديث>>8؛ و تكون الدراسة السوسيولوجية أسهل مع الأعمال الكبرى، من أجل استنباط العلاقات الضرورية بالوحدات الجماعية، و كشف تركيبها؛ هذه الوحدات مجموعة علاقات معقدة، مركبة لدى الفرد؛ و التعقيد السيكولوجي للفرد نتاجه انتماء الأفراد إلى جماعات مختلفة، تؤثر على وعيهم، و تشارك في تشكيل بنية فردية معقدة غير متماسكة تماما. في حين تثبت دراسة الأفراد من الجماعة نفسها، أن مختلف الجماعات قد أثرت في هؤلاء، تلتقي العناصر السيكولوجية، و تتشكل

بالتبادل، فنكون أمام بنية أكثر تماسكا وبساطة9.

في هذا الإطار تكون العلاقة بين الكاتب الكبير و الجماعة الاجتماعية، التي تجد نفسها بوساطة الكاتب ذاته هي المنتج الحقيقي للعمل، و هي من جنس العلاقات بين عناصر المبدع، هي ذاتها علاقات بين عناصر البنية الذهنية، ينتمي مجموعها إلى نمط ذهني واحد، و يعني هذا أن العلاقة بين الأعمال الكبرى و المجموعات الاجتماعية كمنتج تثبت أن هذه الأخيرة هي المنتج الأصلي للعمل الفني10.

لقد أكد (غولدمان):<< أن الموضوعات الحقيقية للإبداع الثقافي هي المجموعات الاجتماعية و ليس الأفراد معزولين، و يعترف بأن الإبداع الفردي يعد جزءا من إبداع الجماعة، وقد ذكر أنه لا حاجة أن يكون المرء عالم اجتماع لكي يعلن بأن الرواية بوصفها وقائع اجتماعية تعكس المجتمع المعاصر، و هكذا نجد بدلا من طرح الهوية بين الواقع الاجتماعي و مضمون الأدب الروائي أنه براهين بنية الوسط الاجتماعي و الشكل الروائي إذ ثمة تساوق بين الشكل الأدبي للرواية و العلاقة اليومية التي يقيمها الناس مع المنافع و مع الناس الآخرين>>11.

و يذهب إلى أن الأدب لا يعكس المجتمع بطريقة شفافية، بل يفعل ذلك من خلال وجهة نظر، بما أنه ذو دلالة، و لما كانت الرواية نوع من الطموح، فهي دلالة أيديولوجية تعبر عن المحيط الذي توجد فيه << و في اعتقادنا أن سوسيولوجيا الأشكال الأدبية تستطيع أن تتجه إلى فحص مفهوم الأدب و الأيديولوجي التي تدعمه بعناية.. إننا لا نستطيع دراسة وظيفة الأدبي الخاصة به، و المعاناة الأيديولوجية في النص و بوساطته، إلا انطلاقا من الكشف عن حدود الأدبي في عصر معين>>12.

يقودنا ذلك إلى الحديث عن المنهج البنيوي التكويني، الذي يعتبر الوصول إلى الأيديولوجي في العمل الأدبي، لا يتم إلا بتحليل البناء الشكلي دون الوقوف عند حدود الشكل، كما هو شأن بعض المناهج الحديثة، بل يتجاوزه إلى محاولة فهم الأيديولوجي و الاجتماعي.

هذه العملية تجعلنا نميز بين ما هو جوهري، و ما هو عرضي داخل العمل؛ فيتوجب على الباحث التعامل معه ككل متماسك، لذا يبحث (غولدمان) عن وسيلة تمكنه من تحقيق هذا

التميز، يجدها في مفهوم رؤية العالم13.

على أساس الافتراض القاضي بأن العمل الأدبي ذو طابع جماعي يقدم (غولدمان) منهجه، حيث يبدأ خطوته الإجرائية بتقطيع العمل إلى حد يصير فيه الموضوع مجموعة من التصرفات ذات الدلالة، و بناء على ذلك يتم البحث عن الذات الفردية، أو الجماعية التي أعطت البنية الذهنية المنتظمة دورها الوظيفي الدال، و يستوجب ذلك التركيز على النص أولا، مع الأخذ في الحسبان انتماء الكاتب إلى جماعة معينة، عن طريق كشف العلاقة بين النص و البنى الذهنية التي استمدها الكاتب من الجماعة المحيطة به. و ما دام العمل الأدبي تعبير عن وجهة نظر للعالم، فهو واقعة اجتماعية تعبر به جماعة ما عن تصوراتها التي تؤثر بدورها في الكاتب، لتظهر في إنتاجه الأدبي، تكون النتيجة أن العمل الأدبي إنتاج جماعي، و ليس فردي14.

تخالف هذه النظرة ما سبقها من الدراسات السوسيولوجية، التي رأت أن العمل الأدبي انعكاس مباشر للوعي الجماعي، بينما ترى البنيوية التكوينية في العمل العامل الذي من خلاله تعي الجماعة ما تفكر فيه، و تشعر به، مع معاملتها العمل الأدبي دون إدراك موضوعي لمدلولاته، أي أن العمل ما هو إلا رؤية للعالم، و هو سبب نجاح البنيوية في تناول الأعمال الكبرى، بينما تنجح الدراسات الأخرى في دراسة الأعمال المتوسطة.

على هذا الأساس يرفض (غولدمان) الدراسات التي تتناول العوامل الخارجة عن النص؛ مثل سوسيولوجيا الكاتب، و سيرته الذاتية الخاصة، فكل ذلك ليس بإمكانه تقديم أي مدلولات عن الأدب، و خطابه الأيديولوجي، و هو الأساس ذاته الذي يقدم من خلاله نظريته على أنها<< نظرية معتدلة متوازنة، استطاعت أن تتمكن من النص دون أن تستغني عن الأيديولوجي أو علم الجمال في الوقت نفسه، و قد وضح هذا التوازن في استفادة غولدمان من أستاذيه جورج لوكاتش و ميخائيل باختين، إذ أخذ عن ماركس و هيجل و فرويد و آدلر جيرار و غيرهم، دون أن يفقد استقلاله و قدرته على بيان خصوصيته>>15.

و لكي يطبق نظريته على النصوص الأدبية، حدد جملة من المصطلحات و المفاهيم التي تحكم العمل الأدبي و هي:

أ- رؤيـــة العالم:

لقد صاغ (غولدمان) منذ عام1947 مسلمة أسست منهجه، تكمن في أن العنصر الأساس للمادية التاريخية في دراسة الأدب، هو اعتبار الأدب و الفلسفة تعبيرا عن رؤية للعالم، تعبر بدورها عن وقائع جماعية، و ليست فردية. في هذا المقام تكون رؤية العالم هي وجهة نظر منسجمة و واحدة تخص الواقع كاملا، و هي وجهة نظر النسق الفكري لجماعة يعـيش أفرادها شروطا اقتصادية و اجتماعية و سياسية واحدة؛ يعبر الكاتب عن النسق ذاته بدلالة كبرى، يتوجب على التحليل الجمالي المحايث استخراج الدلالة الموضوعية لهذا العمـل، و يكشف عن علاقتها بالعوامل الاقتصادية و الاجتماعية؛ فبقدر ما تكون القيمة عظمـى، و تحكم المنهج في أداء وظيفته يتحقق فهم العمل بذاته، و يتم إدراك رؤيته للكون التي لا تزال في طور التكوين بالكاد تبرز في وعي الجماعة16.

يرى (غولدمان) أن الجماعة تضع البنى، التي تعطي التاريخ معنى، و هي أي الجماعـة كغيرها محكومة ببنى ذهنية قبلية، تصبح في شكل رؤية للعالم، رؤية محكومة أيضا بالجماعة ذاتها التي ينتمي إليها الأفراد. إنها مجموع مركب من الأفكار و الطموح و الأحاسيس، التي تربط أفراد الجماعة المتعارضة في الآن مع جماعة أخرى17.

بهذا المفهوم تتجاوز الرؤية للعالم العمل الفردي - الذي يزيد تمثيله لها كلما تطـورت إمكانات المبدع المعرفية القارة في اللاوعي- فتصبح أساس رؤية الجماعة الـتي يصـفها الكاتب و ينقلها من وعي قائم إلى وعي ممكن في العمل الأدبي، و هي عنـد (غولـدمان) وسيطا بين الجماعة و الإبداع، أكبر من أن تكون مجرد إنعكاس لرؤية العالم. إنها نسق من الأفكار و المشاعر كما سبق الذكر.

نقرأ هذه الفكرة في كتابه " الإله الخفي" حيث تظهر رؤية العالم أداة مفهومية :<< إنها على وجه التحديد هذا المجموع من التطلعات و العواطف و الأفكار، يجمـع أعضـاء جماعة – هم في الغالب أعضاء طبقة اجتماعية – و يضعهم في مقابل جماعات أخـرى، و هو لا شك تخطيط و تعميم المؤرخ؛ لكنه تعميم فكرة حقيقية لدى أعضاء جماعة تعمـل على تحقيق وعي الطبقة بطريقة أكثر أو أقل وعيا و ارتباطا>>18.

و بذلك يكتسب العمل الأدبي وظيفة داخل المجتمع، وهي إعطاء رؤية كونية، تكـــون أكثر انسجاما و ارتباطا، كلما كانت تلك الوظيفة ذات أهمية أكبر. و الانســـجام قيمـــة جمالية تدفع بالاجتماعي ليكون منسجما و واقعيا بالقوة؛ هنا نكون إزاء فكـــرة ارتبـــاط الحكم الجمالي ارتباطا وثيقا بالتحليل الاجتماعي؛ هكذا يؤسس (غولدمان) جمالية علـــم الاجتماع19.

يعتبر مفهوم الرؤية للعالم عنصرا أساسيا في تشكيل البنيوية التكوينية نظريا، و إجرائيـــا، يعرفها(غولدمان) في موضع آخر بقوله إنها:<<تقييم البنى الفكرية الواقعية إلى أقصى حـــد للاتحام القوى الواقعية و العاطفية و الفكرية، وحتى المادية، لأعضاء جماعة ما إنها مجموع نهائي للقضايا و الحلول التي تظهر في المستوى الأدبي عن طريق الخلق بوساطة الكلمات، و عـــالم مرتبط بالكائنات و الأشياء>>20.

ثم يستنتج من التعريفين الأول و الثاني نقطتين هامتين:

1- الرؤية للعالم تتعدى كونها رؤية فردية.

2- الرؤية للعالم هي النوع الأدبي و الأسلوب و التركيب و الصور و التقنيات الفنية، التي وظفها الكاتب من أجل التعبير21.

و يمكن القول أن مفهوم الرؤية للعالم نمط من التفكير يحكم في شروط معينة جماعة من الناس، تعيش الظروف الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية ذاتها، تتميز بالشمول، و تتضمن طموح الجماعة، و عناصرها العاطفية و الفكرية، إنها جزء من طبيعة العمل الأدبي.

يضيف (غولدمان) عنصر الانسجام - أساس جميع أعماله و منهجه- معتبرا إياه من العناصر المشكلة للقيمة الجمالية في العمل الأدبي، ويتفرد بكونه مقياس للأعمال العظيمة22.

و من ثم فإن عنصر الرؤية للعالم يحضر أكثر في الأعمال العظيمة أدبية أو فلسفية، لأنه يتميز بالانسجام، حاملا قيما جمالية و فكرية؛ فلا يكون الكاتب عظيما إلا إذا حقق عملـــه الانسجام على مستوى الرؤية، مادام شرطها في تجاوز الوعي الجماعي.

إن الرؤية للعالم هي وسيلة الباحث في إدراك الانسجام الكلي، الذي يميـــز الأعمـــال العظيمة عن الأعمال المتوسطة، الأقل انسجاما في تمثيلها للرؤية للعالم، فيكون الحكم على

العمل انطلاقا من مدى تحقيقه لهذا الانسجام.

و لإدراك الرؤية للعالم عند كاتب ما، يتعقب (غولدمان) جميع أعماله، باعتبار أن الكاتب يمر بمراحل، يتطور فيها، و ينضج، و بالتالي رؤيته للعالم، إلى أن تكتمل في صورة ناضجة؛ و لو اقتصر الباحث على بعض الأعمال فقط، فإن رصد الرؤية للعالم عند هذا الكاتب، ستكون ناقصة، غير واضحة. نفهم من هذا أم الرؤية للعالم تتخذ من الواقع و تكوين الكاتب مرجعا لها، تشمل مختلف العناصر، كالواقع و النفس و تكوين الكاتب، و اللغة، و العلامة، يكون تحليلها مزيجا من الطرائق؛ لذا تتقاطع البنيوية التكوينية مع كثير من العلوم الحديثة، إضافة إلى الناهج النقدية، من هنا تستمد قيمتها كوسيلة لتحليل العمل الأدبي.

هذا المفهوم جعل (غولدمان) يتجاوز رؤية(ماركس) القائمة على الانعكاس المباشر و البسيط، و بما أن وعي الفرد و وعي الجماعة متداخلان، فإن الرؤية للعالم المنسجمة تشكل ذروة الوعي الممكن، يكون خطاب الكاتب الفرد و خطاب الجماعة المنتجة عنصرا أساسا في تكوين هذه الرؤية، أو عنصرا مساعدا. هنا تكمن خصوبة النص بالنسبة للمحلل في ميدان سوسيولوجيا الأدب.

إن الناقد و هو يرصد الرؤية للعالم يهتم بالعناصر الجوهرية في النص، و دلالة الناصر الثانوية، وينظر إلى العمل نظرة شمولية، لا تقصي أي عنصر عاطفي كان أم اجتماعي أم فردي أم نفسي، فكلها كما أوضح (غولدمان) تؤدي إلى تكوين الرؤية للعالم ، و من ثم فإن<< كل عمل أدبي عظيم هو تعبير عن رؤية للعالم، التي هي ظاهرة الوعي الجماعي الذي ينير المفاهيم أو الأحاسيس في وعي المفكر أو الشاعر، اللذان يعبران عن ذلك في الأعمال التي يدرسها المؤرخ، مستعينا بالأدوات المفاهمية، و هي الرؤية للعالم، المعبر عنها في النص، إذ تسمح له باستنباط ما هو أساسي في العمل المدروس، إلى جانب دلالات العناصر الثانوية في مجموع العمل>>23.

ب- الوعي الفعلي و الوعي الممكن:

الوعي الفعلي هو الذي ينجم عن الماضي بجميع أبعاده و ظروفه، حيث تحاول كل مجموعة اجتماعية فهم الواقع انطلاقا من ظروفها الاجتماعية و الاقتصادية و الفكرية و الدينية؛

بينما الوعي الممكن هو ما تطمح فعله طبقة اجتماعية بعد تعرضها لتغيرات مختلفة، دون أن تفقد طابعها الطبقي24.

يخضع الأول في وجوده للحاضر خلال مرحلة معينة، أما الثاني فمجرد إمكانية ترتبط بالمستقبل؛ إنه ذروة ما قد يصله وعي جماعة مع احتفاظها بطبقيتها.

و يمكن القول أن الوعي الممكن يتضمن الوعي الفعلي و يزيد عليه؛ بمعنى أنه يتكون منه، و يتجاوزه ليصير شموليا، لذا يرى (غولدمان) أنه العنصر المحرك لتاريخ الإنسان25.

و بالتالي فالوعي الممكن هو محرك فكر الجماعة، يشكل حاضرها و مستقبلها فـ<< النتاج الأدبي ليس انعكاسا بسيطا لوعي جماعي واقعي و محدود، بل الحد الأقصى للمستوى الذي وصل إليه انسجام أفكار خاصة لجماعة أو أخرى، وعي وجب إدراكه كحقيقة متحركة، موجهة لتحقيق حالة معينة من التوازن؛ وفي هذا المجال يكون ما يميز السوسيولوجية الماركسية عن السوسيولوجيا الوضعية أو النسبية أو الانتقائية، هو اعتبارها المعنى المفتاح، لا يكمن في الوعي الجماعي الواقعي، إنما في الوعي الممكن، الذي يسمح وحده بفهم الوعي الأول>>26.

انطلاقا من هذا الطرح تصبح أشكال الوعي لدى طبقة ما تعبيرا عن رؤيتها للعالم، يجسدها العمل الأدبي للطبقة ذاتها أو غيرها، فينقلها من الوعي الفعلي المعاش إلى الوعي الممكن؛ و ليس باستطاعة أحد القيام بذلك سوى الكاتب العظيم، و يكون الحد الأقصى من الوعي الممكن لدى طبقة اجتماعية هو دائما رؤية للعالم متماسكة نفسيا، تعبر عن نفسها دينيا أو فلسفيا أو أدبيا أو فنيا، بشرط أن يتحقق التماسك الداخلي المنتج لبنى فكرية منسجمة.

يفضي ذلك إلى الحديث عن الانسجام الذي تناوله (لوكاتش) معتبرا العمل الناجح جماليا هو ما دل عن معنى منسجم، في شكل مناسب، يتحقق بتطابق الفردي مع الجماعي، فتعمل كل جماعة على أن تكون لها رؤية للعالم منسجمة و مترابطة27

إلى جانب الانسجام هناك الشمولية، التي تتخذ عند (غولدمان) بعدين واحد أيديولوجي و الآخر علمي، و تتحقق اعتمادا على أسس موجودة في الواقع، بفهم تناقضاته

و خصائصه و اضطراباته الأيديولوجية، حينها تكون الرؤية للعالم ناجحة، تتجاوز بشموليتها النظرة المحدودة و الرؤية الجزئية. ترتكز هذه الخاصية أي الشمولية على التجربة الاجتماعية و التاريخية، الناجمة عن الممارسة و الصراع الطبقي، لا تتوفر إلا إذا أخذ الناقد في حسبانه طموحات الطبقة الاجتماعية المحرومة، التي تعد الفاعل و المحرك للتاريخ28.

ج- البنية الدلالية:

لكي يحدد (غولدمان) مفهوم البنية الدلالية، يستند على المبادئ العامة، التي قدمها(جان بياجيه)، في حديثه عن البنية، إذ يرى أنها لا توجد إلا عندما تجتمع مجموعة عناصر في بنية شاملة تتخذ خصائص لبنائها، مع توفرها جزئيا أو كليا على سمات البنية الشاملة، و عليه ينظر إلى العمل الأدبي باعتباره بنية دالة << ترتبط كمجموع عناصر في وحدة شاملة بعنصر الفهم، في علاقتها بالموضوع المدروس وبعنصر التفسير في علاقتها بالبنيات الأكثر محدودية، و التي هي نفسها العناصر المشكلة لها>>29.

و من أجل دراستها يقوم بتجزئتها إلى بنيات دلالية، لا تفهم إلا بكونها هي ذاتها ضمن دراسة بنية أخرى أكبر منها، و دراسة هذه البنية الكبرى تشترط بدورها وضعها ضمن بنية أخرى أكبر، على علاقة بها، و هكذا30.

يجنب هذا العمل الدارس الوقوع في فخ التفصيل، فلا يحل البنية الدلالية بل معنى، مجرد تركيب غير واعي لبنيات مشابهة، لذلك كان عليه رصد البنيات الدلالية المتماسكة.

بناء على ذلك يعتبر (غولدمان) البنية الدلالية من المفاهيم الأساسية، المؤسسة للبنيوية التكوينية، يتمكن من خلالها الباحث من فهم الصيغة الشمولية للظاهرة الاجتماعية، التي يعبر عنها الأدب، إذ المقصود بهذا المفهوم، هو المعنى الدلالي للبنية الدالة على وعي الجماعة.

هذه البنية لا يمكن تواجدها في فكر أعضاء الجماعة، إنما تتواجد في وعيها الجمعي، وفي وعي بعض أفرادها المميزين، فينتج عن التطابق بين الإمكانات البشرية الفردية و الوضع التاريخي ما يسمى بالعبقرية، تقاس بها الأعمال الأدبية و الفلسفية31. و تتصف هذه البنيات بحركية، تجعلنا ننظر إلى العمال الأدبية على أنها بنيات غير ثابتة، بما أنها تعبير عن نظام و انسجام لموقف أنساني ما، إنها بنية دلالية غير ثابتة يوجه الأفراد إليها وجدانهم و

فكرهم و سلوكهم، تتمظهر أكثر في العمل الأدبي32. تؤدي دراستها إلى كشف الوحدة الداخلية و مجموع العلاقات الأساسية داخل النص؛ إذ يصعب فهمها منفردة بعيدا عن الكل الذي يوحدها مقدما المعطيات التي تشكل رؤية ما للعالم يتضمنها النص.

إن مفهوم البنية الدلالية يحقق أمرين؛ الأول يؤدي إلى فهم طبيعة النص، و يكشف عن دلالته، فهو أمر خاص بالفهم، و يمكن الثاني البنية الدلالية من إصدار حكم على القيم الفلسفية، أو الأدبية، أو الجمالية، ليصبح الفهم ذا بعد معياري.

و لا تتضح هذه البنية إلا إذا ربطت و بشكل عميق ببنيات أكبر كالبنية الذهنية و الرؤية للعالم الخاصة بالطبقات الاجتماعية و البنية الاجتماعية و الاقتصادية، التي تنتجها حقبة تاريخية ما.

لذلك تتميز الأعمال الأدبية ببنية تجمع عددا من العلاقات الضرورية بين العناصر المختلفة المكونة للأثر، على الدارس النظر إليها في الكل الذي هي جزء منه، و هو ما يحدد وحدة طبيعتها و دلالتها الموضوعية << إن مفهوم البنية الدلالية يعني دراسة البناء في ضوء دلالاته المختلفة، إنها ذات منظور واسع، لا يغفل التحليل الداخلي للنتاج ضمن البنيات التاريخية و الاجتماعية، كما لا يغفل دراسة السيرة الذاتية و نفسية الفنان كأدوات مساعدة، ويعو في المقام الأخير إلى إدخال النتاج في علاقة مع البنيات الأساسية للواقع الاجتماعي و التاريخي>>33.

يدفعنا ذلك إلى الحديث عن عمليتين مهمتين في الدراسة السوسيولوجية عند (لوسيان غولدمان) هما الفهم و التفسير، نعرضهما ضمن الشروط الخاصة بالمنهج البنيوي التكويني:

1- الفهم و التفسير: نتجت عما تقدم منهجية مهمة في رؤية (غولدمان) و هي الفهم و التفسير، و هما مصطلحان متكاملان، يختلفان من حيث الدلالة عن الاستخدام العادي لهما؛ يعد التفسير أوسع من الفهم << يبدو الفهم بالنسبة لنا طريقة ذهنية، تكمن في الوصف الدقيق ما أمكن لبنية ذات دلالة>>34 ؛ أي وصف العلاقات المكونة لبنية دلالية، مع التقيد بالنص دون تخطي حدوده.

بينما التفسير هو إدراج بنية دلالية ضمن أخرى أكبر منها، تكون عنصرا مشاركا في تكوينها،

بعبارة أخرى هو إنارة البنية الذهنية للنص في ضوء عناصر خارجية35.

و يوضح (غولدمان) دلالتهما قائلا:<< الفهم قضية خاصة بالتماسك الداخلي للنص، يفترض تناول النص حرفيا، كل النص، و لا شيء غير النص، نبحث داخله عن بنية دالة شاملة؛ أما التفسير فهو قضية خاصة بالبحث عن الذات الفردية أو الجماعية >>36. يتوجه الفهم إذا إلى كشف البنية الداخلية للنص، و يهتم التفسير كمرحلة ثانية بربط النص كبنية ببنيات أوسع منه للكشف عن كيفية تكوينها، وتشمل هذه البنيات الحياة النفسية للمؤلف و رؤيته للعالم المتأثرة بجماعته، و هي جميعها تمثل طابع تفسيريا. و يمكن اعتبار الفهم و التفسير طريقة واحدة تتناول بنيتين مختلفتين، فكرة يؤكدها (غولدمان) في قوله:<< يجب الآن أن نذهب إلى أبعد من ذلك؛ إن الفهم و التفسير ليسا عمليتين ذهنيتين مختلفتين، و لكنهما عملية واحدة موجهة إلى معطيات مختلفة.. و يكفي أخذ كموضوع دراسة بنية شاملة، ليصير ما كان تفسيرا فهما، و على البحث التفسيري العودة كذلك إلى بنية أكثر اتساعا>>37.

و إن تعذر الفصل بين الفهم المحايث و التفسير خلال الدراسة، فإنه من الأهمية بمكان الفصل بينهما عند عرض النتائج، حيث الفهم وحده المحايث في النص موضوع الدراسة؛ بينما التفسير لا يتصف بذلك، وتجدر الإشارة أن كل عملية نربط النص بما هو خارج عنه، تشكل طابعا تفسيريا، إذا نظرنا إليها من هذه الزاوية38. و ينتقل الباحث إلى التفسير بمجرد البدء في دراسته التماسك الداخلي للنص، و محاولته فهم نموذجه البنيوي.

و يرى (غولدمان) أنه مهما وضحنا الاختلاف القائم بين الفهم و التفسير خلال البحث، و بين الطريقة التي تظهر عليها العلاقة بينهما في نهاية البحث، فإنهما- الفهم و التفسير- يتعززان خلال البحث بشكل متبادل، إذ يجد الباحث نفسه مضطرا للعودة باستمرار، تارة إلى التفسير، و تارة إلى الفهم و العكس؛ في المقابل يتوجب عليه أثناء عرض النتائج الفصل بقة بين الفرضيات الفهمية المحايثة للعمل، وبين الفرضيات التفسيرية المفارقة 39.

2- **تركيب البنية و تفكيكها**: ينظر (غولدمان) إلى البنية بصفتها حركية بعيدا عن المفهوم السلبي، الذي يصفها بالسكون، لذا فدراسة أي مجموعة من الأفعال البشرية، تكون

من زاويتين متكاملتين، تركيب البنية، من أجل الكشف عن بنية جديدة، وتفكيك البنى القديمة التي تحققت في الماضي، و مثلت طموح الفئة الاجتماعية نفسها. يهدف التركيب إلى تحقيق التوازن و الاستمرارية عند الفرد و المجموعة، مع مراعاة العنصر الخارجي، و هو محيط الإنسان، و العنصر الداخلي، و هو سلوك الجماعة، لأنهما يشاركان في تغيير المفاهيم و الأفراد، و المواقف.40 << هذا يستوجب، من بين أشياء أخرى تركيبا بين الماضي و المستقبل، بين القديم و الجديد، إلا أن هذا التركيب لا يكون حلا وسطا مستمرا أو رجعيا؛ بل هو على العكس استئناف لقيم الماضي للإنسانية و الحقيقة من منظور القوى الجديدة التي تخلق المستقبل، إنه استئناف يستطيع وحده العثور على الكلية التي هي القيمة الجوهرية لكل حياة أصيلة للفكر>>41. إذا فالعلية تكون بالتوجه نحو تركيب بنية جديدة مغايرة للبنية السابقة عنها، ليصبح الوضع القديم المتماسك و المعقول مفككا، وغير معقول لاحقا. إنه الانتقال من بنية قديمة إلى أخرى جديدة؛ أي تفكيك بنية، ثم تركيبها لتخلق وضعا جديدا.

3- النوايا المعلنة للكاتب: يدرس (غولدمان) هذا العنصر ينظر بالنظر إلى الكاتب على أنه ليس مادة مواتا تماما؛ إنما يتضمن علاقة إنسانية فنية تتمثل في نية الاتصال بين العمل الأدبي و القارئ المحتمل، لا يكون فيها التلقي سلبيا صامتا، حتى لا تجعل من الكاتب مادة مبهمة، و يحول القارئ شيئا غير متفاعل، إن العلاقة هنا<< ليست بين إنسان (الكاتب) و شيء (القارئ غير المتفاعل) أو بين شيء(الكاتب) و شخص(القارئ العادي المتمتع بنوايا حسنة)، و إنما بين شخص و شخص (كاتب/قارئ،أي أنها فاعلة و إيجابية)>>42.

هكذا يكون العمل الأدبي كفعل اتصال في ذاته، من منطلق أن الكلام له مرجعية وصدى، يجعلانه يتجاوز العزلة، فيكون كل تلق هو فعل و نشاط و مشاركة، رؤية تجعل من التفاعل الجماعي محور العمل الأدبي المنتمي للجماعة التي أنتجته، و هي علاقة الخلفية الثقافية و الفنية لتلك الجماعة، ذلك أن الشخصية الأكثر قوة كما يؤكد (غولدمان) :<< هي التي تتطابق بكيفية أفضل مع حياة الفكر، أي مع القوى الجوهرية للوعي الاجتماعي في مظاهره الفعالة و المبدعة>>43، بشرط أن يتصف العمل الأدبي بالفاعلية و الإيجابية، و من ثم نحصل على قارئ فعال، حينما يفهم الواقع من خلال العمل الذي يتلقاه.

البنية الضامنة و المضمونة و البنية المستقلة: يلخصها (غولدمان) في قوله:<< إن المعرفة الفاهمة و المفسرة لوقائع الوعي و لدرجة تلاؤمها أو عدم تلاؤمها، و درجة حقيقتها أو خطئها، لا يمكن الوصول إليها إلا بإدراجها ضمن كليات اجتماعية أكثر اتساعا نسبيا، و هذا الإدراج و حده يسمح بفهم دلالة تلك المعرفة و ضرورتها>>44. و يعتبر هذه المقولة من أسس الفكر الجدلي، باعتبار أن التغير التاريخي يحدث تراكما عبر تاريخ البنية، أي يضيف بنية جديدة على أخرى قديمة مع تسليط الضوء على البنية الجديدة. و تتمظهر البنية الضامنة في ثلاثة أشكال هي تاريخ الأدب و سيرة الكاتب و الفئة الاجتماعية التي يرتبط بها العمل الأدبي المدروس45.

4- **تجزئة الموضوع المدروس:** و هي مرحلة في البحث مهمة إذ تعتمد أي دراسة ذات قيمة علمية على تحديد الموضوع المدروس و علاقته بالنتائج المتوصل إليها، فلا ينطلق الباحث من مواضيع محددة فتأسره، و تكون هي بدورها النتائج، يعمل على التدليل عليها، و هذا خطأ منهجي؛ لذلك عليه أن يبدأ من فرضيات دون اعتبارها نتائج أو مسلمات إنما تعد موضع شك، و المقياس هو المعنى << يجب أن نذهب دائما من الفكرة بأن كل واقع إنساني مؤلف من علمية هيكلية ذات دلالة و أن التجزئة الصحيحة للموضوع:

1- بإمكانية فهم المعاني التابعة لأكبر عدد من المعطيات التي لم تفهم حتى ذلك الحين كأنها جزء من المسألة.

2- بمجرد أننا إذا اعتبرنا أن البحث متقدم بدرجة كافية فإنه يقدم لنا عندئذ مجمل عناصر الموضوع المدروس تقريبا و علاقات التقارب و التباعد التي بينها>>46.

ما نريد الوصول إليه من خلال عرض رؤية (لوسيان غولدمان) في موضوعنا هذا، هو تأكيده على العلاقة بين الرواية و الوعي الممكن للجماعة التي تتخذ المبدع وسيلة تعبر من خلاله عن نفسها، و من ثم فكل دراسة تربط بين الرواية و الواقع الراهن للجماعة، إنما تقع في خطأ منهجي، لأن العمل الأدبي كما بين (غولدمان) هو تعبير عن طموح الجماعة التي ينتمي إليها أي الوعي الممكن لها. إن (غولدمان) في تأسيسه للنقد السوسيولوجي المسمى بالبنيوية التكوينية، ينطلق من فرضية << أن العلاقة بين حياة المجتمع و الخلق الأدبي لا تتصل

بمضمون هذين القطاعين من الواقع الإنساني عموما، و إنما تتصل بالأبنية العقلية أساسا، أي يمكن أن يسمي المقولات التي تشكل الوعي الإمبريقي لمجموعة اجتماعية بعينها و بالعالم التخيلي الذي يخلقه الكاتب>>47. يتمسك (غولدمان) بمبادئه الجدلية التي نلمحها في دراساته التي تركز على الوعي الممكن كوسيط بين الرواية و الواقع الاجتماعي. و هي النقطة التي فتحت عليه بعض الملاحظات من طرف أصحاب سوسيولوجيا النص الأدبي، خاصة تركيزه على الأسس الفلسفية التي تحكم علاقة الرواية بالوعي و الواقع، رغم تأكيده على دراسة النص الروائي من الداخل، و تحليل بنيته الداخلية كمرحلة أولى في منهجه، و هو ما سماه بالفهم، لأنه لم يطعم هذه المرحلة الشكلية بأدوات إجرائية تنضج الفهم، و راح يستسلم للحدس الخاص في الكشف عن البنية الدالة للنص.

و في الحقيقة كان (غولدمان) يتبع خطى أستاذه (لوكاتش) عموما، مع تجاوزه بإدراج الدراسة الداخلية للنص كمرحلة من مراحل دراسة الرواية، دون ربطها بما هو خارج عنها، حيث أرجأ ذلك إلى مرحلة لاحقة هي مرحلة التفسير، و إعطاء الأسبقية في التحليل لدراسة البنية الداخلية للنص الروائي يعتبر تقدما كبيرا في إطار النقد الجدلي نحو الاهتمام بخصوصية الإبداع الأدبي و إدراك ضرورة التعامل معه بأسلوب يخالف تعاملنا مع أنماط الفكر الأخرى كالفلسفة و الأيديولوجيا، و كل هذا جعل المنهج البنيوي المطبق على الرواية خاصة تصورا نقديا شديد المرونة، و الاحتياط في التعامل مع الإبداع، و لعله السبب في جعل (رولان بارت) رغم ميوله النقدية المخالفة، يرى في منهج (غولدمان) أكثر المناهج مرونة و مهارة في التاريخ الاجتماعي و السياسي48.

الهوامش:

[1] – جمال شحيد : في البنيوية التركيبية دراسة في منهج لوسيان غولدمان، دار بن رشد، بيروت ط1982/2 ص 75.

2– رمان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة تر جابر عصفور ص66.

- الجنسينية مذهب ديني خاص بأتباع جنسين(1585-1636) أسقف (إريس) الذي آمن بالجبر، و أنكر الإرادة الحرة للإنسان، و قد تأثر الفيلسوف (باسكال 1622-1662) بهذا المذهب، وصار مشابها له، أنظر المرجع السابق ، الهامش ص67.

3-Lucien Gold; an Pour Une Sociologie Du Roman ID Gallmard p41

4- Ibd p41

5-Ibd p42

6-

Ibd p42

[7] – جمال شحيد: في البنيوية التركيبية دراسة في منهج لوسيان غولدمان، ص78 .

[8] – لوسيان غولدمان: مقدمات في سوسيولوجيا الرواية، تر بدر الدين عكرودي، دار الحوار و التوزيع، سورياط1993/1 ص21

[9] المرجع نفسه ص232 .

10-المرجع نفسه ص 232 .

[11] – جان إيف تاديه : النقد الأدبي في القرن العشرين تر منذر عياشي ص 130.

[12] – جان لوي كابانس : النقد الأدبي و العلوم الإنسانية، تر فهد عكام، دار الفكر، سوريا ط1982/1 ص85 .

[13] – صالح سليمان عبد العظيم: سوسيولوجيا الرواية السياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب_د نة ط) 1998 ص 54 .

14 – لوسيان غولدمان : مقدمات في سوسيولوجيا الرواية، تر بدر الدين عرودكي ص334 .

15 – مدحت الجيار : النص الأدبي من منظور اجتماعي، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية (د ن ط) 2001 ص55 .

16 – جان إيف تاديه: النقد الأدبي في القرن العشرين تر منذر عياش ص128 .

17 – ميجان الرويلي و سعد البازعي : دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط2/2000 ص43 .

18-Lucien Goldman : Le dieu caché, Ed, Gallemard 1959 p26

19– جاك لينهارت: دفاعا عن جمالية تستلهم علم الاجتماع، محاولة لبناء الجمالية لدى لوسيان غولدمان، تر فهد عكام، الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب دمشق ع 112 آب 1980 45.

20-Lucien Goldman: Le dieu caché p349

Ibid p 349

22 Lucien Goldman: Le dieu caché p28

23- جاك اينهارت : دفاعا عن جمالية تستلهم علم الاجتماع ص45.

24- جمال شحيد: البنيوية التركيبية ص40.

25 – المرجع نفسه : ص 41.

26-Lucien Goldman:Pour une sociologie du eoman p41

27 – جمال شحيد: في البنيوية التركيبية ص 43.

28 – المرجع نفسه ص 43- 44.

– 29Lucien golman: Marxisme et sciences humaines, Gallmard 1970 p21

–30 Ibid p 19

31– جمال شحيد: في البنية التركيبية ص 80.

32 – محمود علي البدوي: علم اجتماع الأدب ص 182.

33 – المرجع نفسه: ص183.

34 – لوسيان غولدمان : المنهجية في علم الاجتماع الأدبي، تر مصطفى المنشاوي، دار الحداثة، بيروت ط1/1981 ص16.

35 – جمال شحيد : البنيوية التركيبية ص 84 .

– 36Lucien Goldman: Marxisme et sciences humaines p62

–37Ibid p65-66

38 – لو سيان غولدمان : المنهجية في علم الاجتماع الأدبي ص 18.

39 – لوسيان غولدمان : المنهجية في علم الاجتماع الأدبي ص 18.

40 – المرجع نفسه ص 24

41 – لوسيان غولدمان : البنيوية التكوينية ص 28 .

42 – جمال شحيد: في البنيوية التركيبية ص86 .

43 – لوسيان غولدمان : البنيوية التكوينية ص 19 .

44– المرجع نفسه:ص 36 .

45– جمال شحيد في البنيوية التركيبية ص 89 .

46– المرجع نفسه ص90 .

47 – لوسيان غولدمان : علم اجتماع الأدب، تر جابر عصفور، فصول في النقد، ع2 يناير1981 ص 102 .

48– حميد لحميداني : النقد الروائي و الأيديولوجيا ص71 .